تأليه الإنسان في الأديان الوضعية "عرض ونقد"

د. محمد إبراهيم أحمد رجب[1]

ملخّص

يأتي موضوع تأليه الإنسان في الأديان الوضعية ليفتح لنا بابًا من أبواب الاعتقادات البشرية في بعض المخلوقات أو الحيوانات أو البَشر، وهذا يَدعونا لحَثِّ الخُطا في هذا الموضوع الهامِّ، الذي يضرب بجذوره في تاريخ الاعتقاد البشري، البعيد عن المنهج السَّماويِّ، الذي جاءَت به الرُّسلُ من الله -تبارك وتعالى- إلى البشرية؛ لتَصل به إلى طريق الحقِّ والهداية.

ولكننا نجد بعضَ الطَّوائف البشرية تتنكَّب لهذا الطَّريقَ السَّويِّ، وتَختار المسيرَ في طريق الضَّلال، فتتَّخذ من بعض المخلوقات آلهة يَدينون لها بالولاء والتقديس، نتيجة الخوف منها، أو اللُّجوء إليها والاستنجادِ بها من أحداث ووقائع غيبية لا تُعرف أسبابُها.

وقد انتشر هذا الاعتقادُ في معظم الطَّوائف البَشرية، وخاصة عند أجيال الأمم التي تباعَدَ زَمنُها عن زَمان أنبيائها وحُكمائها، وهذا ظاهر خاصّةً في الديانات الأَكَّدية والزرادشتية (المجوسية) والطوطمية .. وغيرها من الديانات الوضعية.

وقد حاول البحثُ إلقاءَ الضَّوء على بعض هذه الديانات الوضعية وخصائصها؛ لأن الموضوع أكبر من أن يُحاط به في مقالة أو بحث، وهذه دعوة للاستمرار في البحث العلمي عن نشأة الأديان الوضعية؛ للوصول إلى الأسباب التي أدَّت بطوائف من البشر للانحراف في الاعتقاد، والسَّيْرِ على طريقٍ غيرِ طريق الأنبياءِ.

الكلمات المفتاحية: الدِّين، الفصل والملل، الأديان الوضعية، الوحي السماوي، الطوائف البشرية.

1 - مدير إدارة الفتوى بوزارة الأوقاف "سابقا" - مصر.

مقدمة

يتناول البحث فِكرَ الجماعات البشرية التي وُجدت في فترة مُتقدِّمة من التاريخ، وجنحَت لسبب أو لآخر لاتِّخاذ الإنسان إلهًا، أو أضفت بعضٍ من صفات الألوهية على بعض البشر، وما نتج عن ذلك الخَلل الفكريِّ والعقدي والنفسي والفلسفي عندها، وتناول البحث أسباب تأليه البشر نتيجة للتقارب الفكري أو الفلسفي أو الثقافي أو الغزو الاستعماري، وما يتزامن مع ذلك من فرض المُستعمِر لفكره ودينه ومنهجه الفلسفي والفكري والعقدي على الأُمم المَهزومة، ثم حاولنا الإجابة على السؤال التالي: لماذا وكيف يجنح الإنسان إلى اتِّخاذ آلهةٍ بشرية، أو إضفاء بعض صفات الألوهية على بعض البشر؟

محاولين الإجابةَ عن هذا السؤال في ثنايا البحث في نقاط، وسنحاول أيضًا معالجةَ الموضوع من خلال المنهج الاستقرائيِّ الوصفي.

أولا: الدِّين الوضعيُّ والدِّين السَّماويُّ

لا شكَّ أن الديانات والعقائد من الأمور التي اختصَّ الله -سبحانه وتعالى- نفسَه بها، وطوال التاريخ البشري كان الإنسانُ في بدايته يتوجَّه إلى الله -سبحانه وتعالى- بالعبادة، حتى وصل الأمرُ ببعض الفئات والطوائف البشرية إلى أنْ تَتَّخذ من دون الله إلهًا، ومن هنا نشأ ما يُسمَّى بـ«الدِّين الوضعي» في مقابل «الدِّين السماويّ»، ولهذا يمُكِن بيانُ الفرق بين الدِّين الوضعيِّ والدِّين السَّماويِّ، كالتالي:

1 - الدِّين الوضعي

هو الذي يكون من وضع البشر أنفسِهم، وهو عبارة عن مجموعة من المبادئ والقِيَم العامة،

وضعَها بعضُ الناس «المُستنيرينَ» لأُمَمِهم ليسيروا عليها ويَعملوا بما فيها، دون الاستناد إلى وَضعٍ إلهيٍّ، وإنَّما هي جملة من التَّعاليم والقواعد العامة التي اتَّفقوا عليها، وساروا على منوالها، وخضعوا فيها لمعبود مُعينَّ أو معبودات مُتعدِّدة، والأمثلة على الدِّين الوضعي كثيرة منها: الديانات الأكدية، والبرهمية في الهند، والبوذية في شرق آسيا، ومنها ديانة المصريين القدماء، والديانات الفارسية القديمة وغيرها.

2 - الدِّين السماوي

أما الدِّين السَّماويُّ: فهو تعاليم إلهيّةٌ من وحي الله -عز وجل-، وإرشاداتٌ سماوية من لدن الخالقِ القدير، العليم بنفوس العباد وطبائعهم وما يحتاجون إليه في إصلاح حالهم في المعاش والمعاد والدُّنيا والآخرة، فهو مجموعة التَّعاليم والأوامر والنَّواهي التي يَجيءُ بها رسولٌ من البشر أوحى اللهُ -تعالى- بها إليه، وفي مقدمتها الإيمانُ بخالق واحد مُوجِّه لهذا الكون، لا شريكَ له في مُلكه، وهو وحدَه مَن يَستحقُّ العبادة والخضوع، دون غيره، والإيمانُ باليوم الآخر والحساب والجزاء وبالثَّواب في الجنة للمؤمنين، والعذاب المُقيم في النار للكافرين، وذلك مثل الديانة اليهودية في أصلها، كما جاء بها موسى عليه السلام، أو الديانة المسيحية يوم أن جاء بها المسيحُ عليه السلام في صورتها النَّقية، والديانة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ رحمة للعالمين، فكانت خاتمةً لجميع الأديان والرسالات السماوية، فلا وحيَ بعد نبوة محمد ﷺ، ولا دينَ بعد الإسلام[1].

وبعد هذا البيان، وتوضيح الفرق بين الدِّين الوضعي والدِّين السماوي، نُلقي الضَّوء على أوَّل الديانات الوضعية التي عملت على تأليه الإنسان، وإصباغ صفة الألوهية عليه من خلال تناول مفهوم تأليه الإنسان في الأديان الوضعية.

3 - مفهوم أو مصطلح تأليه الإنسان

تأليهُ الإنسان، أو عبادةُ البشرِ كآلهة، هو مفهوم وُجد في بعض الأديان الوضعية والتقاليد الرُّوحية، وهذا المفهوم قد يظهر بأشكال مختلفة، من تقديس الأفراد المُميَّزين أو الزُّعماء البارزين، وصولاً إلى اعتبار البشر تجسيدًا للإله. ومفهوم أو مصطلح «تأليه الإنسان» هو مفهوم

1 - عوض الله حجازي: الأديان الوضعية، ص.ص. 9 - 12 & جامعة المدينة العالمية: مقرر الأديان والمذاهب، ص35.

موجود في كثير من الأديان الوضعية والتقاليد الروحية عبر التاريخ، ويعكس هذا المفهوم تطلُّعات البشر إلى فهم القوى الروحية والكونية من خلال شخصيات بشرية بارزة، لكنَّه -أيضًا- يحمل في طيَّاته تعقيداتٍ وتحدِّياتٍ اجتماعية وسياسية، ولهذا سنستعرض بعض الأمثلة البارزة من الأديان الوضعية التي يظهر فيها هذا المفهوم:

1 - الديانة الأكدية: بنظرة تاريخية إلى العصر الذهبي للأكديين، فقد كانت الديانة الأكدية هي أول ديانة بشرية، وهي ديانة (سرجون الأكدي)، وكانت أول ديانة أخلاقية في التاريخ مع الديانة الزرادشتية (المجوسية).

2 - الفراعنة في مصر القديمة: حيث كان الفرعون يُعتبرَ تجسيدًا للآلهة على الأرض، وخاصّةً الإله (حورس)، وبعد وفاة الفرعون كان يُعتقد أنه يصبح إلهًا كاملاً، والفراعنة كانوا يَعبدونه ويُقدِّسونه، وكذلك كان يُنظر إلى الفَراعنةِ على أنهم وسطاء بين الآلهة والبشر.

3 - الأباطرة الرومان: في روما القديمة كان يُنظَرُ إلى الأباطرة بعد وفاتهم على أنهم آلهةٌ، وبعضُهم أُعلنوا آلهة أثناء حياتهم. فكان يُبنى لهم المعابد، ويُقدَّم لهم القرابين، وكان يُنظر إليهم على أنهم حافظو النظام والعدل بإرادة الآلهة.

4 - الهندوسية: في الهندوسية يُوجد مفهوم "أفاتار"، حيث يُعتقَد أن الآلهة تتجسَّد في شكل بشري للنزول إلى الأرض وإنقاذ البشر، ومن أبرز الأمثلة على ذلك: التجسُّدات المُتعدِّدة للإله (فيشنو)، و(كريشنا)، و(راما)، الذين يُعتبرون آلهة في هيئة بشر.

5 - البوذية: في بعض التقاليد البوذية يُعتقد أن (بوذا) نفسَه كان شخصية مُقدَّسة تَفوق الطبيعة البشرية، وبعد وفاته اعتُبر بوذا «شخصية إلهية» تتجسَّد في شتَّى الأشكال لقيادة الأتباع إلى التَّنوير.

6 - الشنتو: في الشنتو اليابانية يُعتبر الإمبراطور من «نسل الآلهة»، ويُعبَد كـ «شخصية إلهية». وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان الإمبراطور يُعتبرَ تجسيدًا لـ«إله الشمس» (أماتيراسو).

7 - الكثير من الأديان الإفريقية التقليدية: في بعض الأديان التقليدية الأفريقية يُقدَّس زعماءُ القبائل والكهنة باعتبارهم وسطاءَ بين البشر والآلهة. وهؤلاء الأفراد يُعتبرَون مُلهَمين من قوًى روحية، ويُعامَلون بتبجيل واحترام كبيرين.

أ - التحليل الثقافي والدِّيني

تأليهُ الإنسان يَعكس غالبًا احتياجاتٍ دينيّةً وثقافيّةً واجتماعيّةً مُعيَّنة، مثل الحاجة إلى سلطة مبرَّرَة دينيًّا، أو الرغبة في فهم العلاقة بين الإنسان والإله، وهذه الأمور تُفضي غالبًا إلى تشكيل هياكل اجتماعية ودينية مُعقَّدة، ويُؤدِّي «الأشخاصُ المؤلَّهون» دورًا مُهِمًّا في توجيه المجتمع وتَشكيله.

ب - النقد والتحديات

في المنظور الحديث يُنتقد «تأليهُ الإنسان»، في بعض الأحيان، باعتباره أداةً للسَّيطرة والقَمع؛ فكثيرًا ما يُستخدم لتبرير السلطة المُطلقة وإسكات المعارضة. وفي كثير من الأحيان تُعتبر هذه الممارسات وسيلةً لتكريس الطاعة المُطلَقة للفرد، وهذا كلُّه يَتعارض مع المفاهيم الحداثية مثل: الديمقراطية والحرية والمساواة.

ثانيًا: الديانة الأكدية

1 - نظرة تاريخية إلى العصر الذهبي للأكديين

كانت الديانة الأكَّدية أوَّلَ ديانة بشرية، وهي ديانة (سرجون الأكدي)، وكانت كذلك أوَّلَ ديانة أخلاقية في التاريخ، بالتوازي مع الديانة الزرادشتية (المجوسية)، ومعنى «سرجون» (شارو كِن) أي: «الملك الأسد»، وهو مُؤسِّس الإمبراطورية الأكدية وأوَّلُ أباطرتها، وامتدَت إمبراطوريته الواسعة من «عيلام» إلى البحر المتوسط، وشمل ذلك بلادَ ما بين النهرين والأناضول، وحكم منذ عام 2334 قبل الميلاد إلى عام 2284 قبل الميلاد.

ويُحدِّثنا التاريخ أن دولة «أكد» نشأت سنة 2350 قبل الميلاد، وأنَّها أوَّلُ دولة استَحدثَت «تأليه الملوك»[1]، وإن كان قومُ نوح أسبقَ في التأليه كما قال -تعالى- في القرآن الكريم: ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾ [نوح: 23]، وبهذا المعنى فُسِّر ما جاء في «صحيح مسلم» من حديث عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسةً رأيْنَها بالحبشة تُسمَّى مارية، فيها تصاوير، لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أُولئِكَ إذا كانَ

1 - نبيلة محمد عبد الحليم: نظام الحكم في الدولة الأكدية، ص.ص. 115 - 118.

فيهم الرَّجلُ الصَّالِحُ فماتَ بَنَوا على قَبرِهِ مَسجِدًا، وصَوَّروا فيه تلكَ الصُّوَرَ، أُولئِكَ شِرارُ الخَلقِ عندَ اللهِ يومَ القِيامة».

وذكر الثَّعلبيُّ (ت: 427هـ) عن ابن عباس أنه قال: «هذه الأصنامُ أسماءُ رِجالٍ صالحينَ من قومِ نوحٍ، فلمَّا هَلَكوا أوحى الشَّيطانُ إلى قومهم أن انصبُوا في مَجالسِهم التي كانوا يَجلسون فيها أنصابًا، وسَمُّوها بأسمائِهم، تَذكروهُم بها، ففَعَلوا، فلَم تُعبَدْ، حتَّى إذا هَلَكَ أولئِكَ ونُسِخَ العِلمُ عُبِدَت من دون الله».

وهذا يجعلنا لا نستغرب ما جاء في الديانة الأكدية، استنادًا إلي البُعد التاريخي في عبادة قوم نوح، حيث ارتبط اسم (سرجون) أوَّل ملك للأكاديين بالصِّفات المُقدَّسة، ومن بعده جاء الملك (ترامسن) الذي كان يُنادى بلقب «ترامسن المُقدَّس إله أكد»، وقد استمرَّ الملوك بالانتساب إلى الصِّفات الإلهية، فبُنيت لهم المعابدُ، وقُدِّمت لتماثيلهم العطايا والقرابين، وأُلِّفت الأناشيدُ والتَّرانيم المُقدَّسة لتمجيدهم، والمُستقرئ للتاريخ يُلاحِظ أنَّ هناك نوعين من الانحرافات التي أخذت مكانها منذ مطلع التاريخ البشري على الأرض منها:

1. **الانحرافُ السُّلوكيُّ والتَّصرُّفات**، وهو الأهون والأسهل لمعالجته.
2. **الانحرافُ العقديُّ والفكري والفلسفي**، وهو الأخطر حتى يومنا هذا.

وهنا يعود بنا التاريخ سريعًا إلى قوم نوح، فقد ابتُليت البشريةُ بهذا النوع من الدّيانات، التي يَتوجَّهُ أتباعُها بالعبادة والتقديس لغير الله تعالى، بعد أنْ سوَّلَت لقومِ نوح أنفسُهُم بأن يُقدِّسوا ويَضعوا هالات لبعض الصالحين، وينحتوا صورًا لهم، ثم أدخلوها معابدَهم، فكانت بداية الانحراف العقدي والفكري والفلسفي، وهذا يُعطينا مُؤشِّرات قوية على بداية الانحراف البشري في مجال اتِّخاذ البشر للآلهة.

ونعود إلى ديانة «أكد» وتأليه الملك المُقدَّس، فقد زعم بعض الملاحدة أنه جاء في لوح أثريٍّ أكَّديٍّ ذكر ولادة (سرجون الأكدى) الذي وُلد سنة 2300 قبل الميلاد[1]، وهذا النَّقشُ ذُكر فيه أنَّه لمَّا وُلد (سرجون الأكدي) وضعتهُ والدتُه في سلة مطلية (بالقير)، ثم وضعت السَّلة في نهر

1 - منشور على صفحة "موسوعة التاريخ والسير والعقائد" - على موقع الفيسبوك (تم النشر بتاريخ 12 نوفمبر/ تشرين الثاني 2011م).

الفرات، لتحمي طفلها من «قانون قتل الأطفال»، لتَصل السَّلةُ فيما بعدُ إلى قصر الملك (أور زابابا)، والتقطها الساقي (اوكي)، وقد جنح بعضُ الملاحدة بهذه القصة للقول بأن مُؤلِّف القرآنَ اقتبس هذه القصة من التوراة، وأن مُؤلِّف التوراة اقتبسَ بدوره هذه القصة من المَوروث الأكَّدي! إلا أن هذا الادِّعاءَ به الكثير من الثغرات التاريخية والمنهجية، منها:

1. عدم امتلاك أي دليل ماديٍّ علمي على إثبات هذا الادِّعاء أو دليل تاريخي موثوق به.

2. أن الموروث الأكَّدي غيرُ ثابت تاريخيًّا، بخلاف التَّوراة والقرآن، اللذين ثبتا تاريخيًّا بكل ما احتويا عليه من قصة موسى كاملة من مولده حتى مماته، بنصوص دينية يختلفُ مضمونُها عن الموروث الأكدي البشري الذي هو من وضع الإنسان.

3. إن النَّقش موجود في المتحف البريطاني، وقد تمَّ العثور عليه في مكتبة ملك آشور (آشور بانيبيال)، الذي حكم من سنه 669 إلى سنه 631 قبل الميلاد في «نينوى» بالعراق، والتي يوجد فيها أيضا ألواح «ملحمة جلجماش»، وما يُسمَّى بـ"ملحمة الخلق»، ويذكر الموقعُ الذي قيل فيه: أنه على الرغم من أن الروايات السومرية القديمة لـ(سرجون) تعود إلى حياته، إلا أن الرواية الأسطورية لميلاده معروفة من خلال أربعة ألواح مُجزَّأة، فقط ثلاثة من العصر الحديث 934 إلى 605 قبل الميلاد، وواحدة من العصر البابلي الجديد 626 قبل الميلاد إلى 539 قبل الميلاد.

4. إن لوحة ولادة (سرجون الأكَّدي) لا ترجع لفترة حكم هذا الملك، فبالرغم من العثور على عدد كبير من النقوش والألواح الأكدية والسومرية، التي تُوثِّق تاريخ (سرجون الأكدي) وإنجازاته وبطولاته، فإنَّه لم يتمَّ العثورُ على هذه القصة، وهذه اللوحة ترجع في الأصل إلى ما بعد فترة حكم (سرجون الأكدي) لأكثر من 1500 سنة، لكن كما هو الأرجح أن «ملحمة سرجون» كُتبت بعدَ عصر سيدنا موسى نفسه بـ 300 عام تقريبًا، حيث كُتبت في العهد الآشوري الجديد، يعني عام 700 قبل الميلاد.

5. ذكر باحثون آخرون أن لوحة ميلاد (سرجون) ترجع لفترة حكم (سرجون الثاني) الآشوري، أي بعد 1000 سنة من حكم (سرجون الأكدي)، والظاهر أن الملك (سرجون الثاني) الآشوري وضعَ النَّقشَ لتمجيد (سرجون الأكدي)؛ لأنه كان يَعتبرُ مُلكَه امتدادًا لمُلك (سرجون الأول)، وهذا يعني أنه قد يكون اطَّلع على التوراة قبل تحريفها، واقتبس منها قصة موسى عليه السلام.

6. جاء في سفر الخروج: «ولمَّا لم يكن يمُكنُها أن تُخبِّئَه بعدَ أن أخذَت له سَفَطًا من البرَدي، وطَلَته بـ(الحمر والزفت)، وَضعتِ الولدَ فيه، ووَضعتْه بينَ الحُلفاء على حافةِ النَّهر». ويرى (بريون لويس - Brion Lewis): أنَّ النَّقشَ يتكلَّم على (سرجون الثاني)، وليس (سرجون الأكدي)، ومما يَدعَمُ هذه النظرية أن الملحمة تَذكر أن هزيمة (تيليمون) على يد (سرجون)، و(تيليمون) هذا لم يَصلْنا الكثيرُ عنه سوى أنه وُجد في فتره وجيزة تسبق (سرجون الثاني).

7. أن المقطوع به تاريخيًّا أن قصة ولادة موسى ليست أكدية، وأن القرآن جاء لتصحيح قصة ولادة موسى بعد أن تمَّ تحريف بعض تفاصيلها في التوراة، فقال -تبارك وتعالى-: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ¤ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾ [القصص: 7 – 8].

8. هذا الرَّدُّ كافٍ بناءً على تأريخ اليهود لزمان موسى، وإلا فقد يكون اليهود مُخطئين أيضًا، ويكون موسى أقدم من هذا بقرون كثيرة.

وكانت مدينة «أكَّد» أوَّلَ كيان سياسي متعدِّد الجنسيات في العالم، استطاع فيه (سرجون) أن يُوحِّدَ بلادَ ما بين النهرين تحت حكمه، ويَضع نموذجًا لملوك ما بين النهرين اللاحقين ليَحذوا حذوَه، أو يحاولوا تجاوُزَه، وكان أوَّلَ شخصية استطاعت توحيد القبائل السامية، وهزيمة المدن السومرية الواحدة تلوَ الأخرى، ويقال إن (سرجون) نفسَه هو ابن (لابيوم) أو (اتيبيل) السامي، ويُقال إنَّ أُمَّه كانت كاهنة[1]، وأنه لمَّا وَلدَتْه أُمُّه وضعته في سَلَّة ورَمته في نهر الفرات، حيث عَثر عليه بستانيٌّ ورباه، فلمَّا تَرعرعَ وشَبَّ شملَته الآلهةُ (عشتار) بعطفها وحبِّها، ثم تدرَّجَ في الوظائف حتى ارتقى إلى خدمة ملك «كيش» (أور زابابا)، بل استولى أخيرًا على العرش، وبنى مدينة «أكد»، وجمع حولَه جيشًا، وأخضع غربَ آسيا، ثم حكم 56 سنة، جلبَ خلالها الرَّخاءَ للشَّعب، واستَتبَّ الأمنُ في كل مكان، ونشر المعارفَ والعلوم والفنون والكتابة.

ولم يكن (سرجون) من أبناء الملوك، ولكن الحكايات السومرية تروي سيرتَه على لسانه، وقد تكون أسطورة، ويسرد (سرجون) قصَّتَه فيقول: «وحملَت بي أُمي وضيعةَ الشَّأن، وأخرجَتني إلى

1 - سِفر الخروج، إصحاح 2.

العالم سرًّا، ووضعتني في قارب من السل كالسَّلة، وغلقَت عليَّ البابَ بـ(القار)، وأنجاني أحدُ العُمَّال أو البُستانيِّين هو (اوكي)، وأصبحتُ فيما بعدُ ساقيَ الملك.

فقرَّبَه إليه، وزادَ نفوذُه وسلطانُه، ثم خرج على سيِّده وخلعَه، وجلسَ على عرش أكَّد، وسمَّى نفسَه الملك 'صاحب السلطان العالي'»، ويُسمِّيه المُؤرخون (سرجون الأعظم)، لأنه غَزا مدنًا كثيرة، وأهلكَ عددًا من الخلائق، وكان من بين ضحايا الملك السومري (لوجال زاغيس) نفسُه، الذي نهب «لكش» وانتهك حرمةَ آلهتها، فقد هزمَه (سرجون) وساقه مُقيَّدًا بالأغلال إلى «نيبورا»، وأخذ هذا الجُنديُّ الباسل يُخضع البلادَ شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، فاستولى على (عيلام)، وغسلَ أسلحتَه في مياه «الخليج الفارسي" رمزًا لانتصاراته الباهرة، ثم اجتاز غربَ آسيا، ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط، إلى أن تجمَّعَت حولَه الأساطيرُ، فهيَّأت عقولَ الأجيال التالية لأن تجعلَ منه إلهًا، وانتهى حُكمُه ونارُ الثورة مشتعلة في جميع أنحاء دولته.

وكانت زوجتُه هي: تاشلو لا توم[1].

وأولاده: انهيدوانا، ريموش، ومنا تشيتوشو، وابارووم، وابيش تاكل، وكان أبوه: لائييم.

والمُربيِّ له: اوكي.

وتُشير نصوص (سرجون) إلى أنه استطاع فيما بعد أن يُسيطر على بلاد (سومر) جميعها، وبعد أن انتهى من الزعيم (لو جال زاغيزي) بنزع ألقابه الدِّينية والدنيوية، ثم وضعها على نفسه، عمد إلى إقامة ابنته (انخيدوانا) في وظيفة «كاهنة إله القمر السماري نانا»، وهو معبود مدينة (اور)، وهو تقليد بدأه ثم استقرَّ بعد ذلك كامتياز لأخوات وبنات الملك. وهذا ما فعله كذلك الفراعنة المصريون عندما جعلوا من زوجاتهم ثم بناتهم فيما بعد زوجات للإله (آمون)، وهذا النزوع نحو تأليه الملوك الأكديين لأنفسهم، ووضع علامة الألوهية (دنجير) أمامَ أسماء بعضِهم، وإدخال اسم الملك مع أسماء الآلهة في العقود القانونية، أدَّى إلى تعاظم وضع القضاة، فأصبحوا يحكمون باسم الملك.

ومن المعالم الشُّمولية والمركزية لـ(سرجون الأكدي) أنه جعل لكل دولتِه تقويمًا واحدًا مركزيًّا، بعد أن كان لكل مدينة تقويمُها الخاص بها شهورًا وأعيادًا وآلهة.

---

1 - سِفر الخروج، إصحاح 2.

4 - المظاهر الدِّينية عند الأكديين

كان الأكَّديون يَعبدون مجموعةً من الآلهة، ولكنَّهم أظهروا ميْلاً أكبر للآلهة السماوية، وخاصة الإله (شمش) الذي كان «إله الشمس»، وبقي «إله الهواء» (إنليل) أحد أكبر آلهتهم، والكهنة يَنقسمون إلى طبقات، وازداد الميل نحو (كهنة العرافة) التي هي (قراءه المستقبل)، وظهرت التَّعاويذُ السِّحريّةُ في العلاج الروحي وعقائد ما بعد الموت.

5 - الأساطير الأكدية المُتعلِّقة بالآلهة

تبنَّى الأكديون أساطيرَ أسلافهم السُّومريِّين، فقد كانت ديانتهم كوكبية، تهتمُّ بعبادة الشمس والكواكب، ويُعتبرَ «إله الشمس» (شمش) من الناحية العملية هو الإله القوميّ لهم، وكان السومريون يُسمُّون إله الشمس (أوتو) أي «الشمس الأب»، ويَبدو أن عبادة الشمس السُّومرية انتقلت خلال ظهور الأسرة الأكدية إلى مصر، وسيظهر هذا على شكل (حورس) أو (رَع) أو «الراعي».

أما اسم (آتون) فلَهُ علاقة وطيدة باسم (أوتو) السُّومري، وقد تبنَّى (مانس) المحارب أو (منشينشو) رمزَ الصَّقر كرمز دالٍّ على الشمس، كما فعل أسلافه سابقًا، وقد انتقل هذا بدوره إلى مصر، وأصبحت علاقةُ الشَّمس بالصَّقر والنَّسر وطيدةً دالَّةً على الذُّكورة والبطولة والقوة والصُّمود.

وكان الإله القومي للأكَّديِّين هو (شمش) إله الشمس متماهيًا مع إله السماء (انو) بسبب العلاقة الدَّالة عليهما، فقد كانت الأشعة الثّمانية تَعني بشكل عام (إله)، وهذا الرمز يُشير حصرًا إلى (انو) الذي يَتماهى مع إله (إيل)، وهذا يُعطي (شمش) «المَنزلةَ الرفيعة» التي قد تقترب من التَّفرُّد في الديانة الأكدية، وكان للآلهة ذات الطابع الشمسي مكانة كبيرة، وكذلك الآلهة (عشتار) و(تموز) إلها الخصب والحب، وقد تطوَّرَت منذ السُّومريِّين الرَّمزية العَدَدية للآلهة، وبقيت كما هي حتى تغيَّرت أسماءُ الآلهة السُّومرية إلى الأكَّدية، ولو رجعنا إلى بيان للآلهة الأكَّدية لوجدنا التالي[1]:

- ادد: إله العاصفة.
- انوا: إله السماء العالي وزوجته هي (كي) الأرض.

---

1 - خزعل الماجدي: الحضارات السامية المبكرة، ص191 & مهران بيومي: المدن الكبري في مصر والشرق الأدنى القديم ج2، ص127.

- (ارزوا): إله البناء.
- بعل: إله الطقس، ومعناه السيِّد، وقد أشار إليه القرآن الكريم فقال -تعالي-: ﴿**أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**﴾ [الصافات: 125]، وإليه تُنسب مدينة بعلبك اللبنانية.
- بعلت صبري: سيِّدة العالم الأسفل.
- كالا: شياطين العالم الأسفل الذين يَقودون (كوكال).
- انا: ثور الشَّمس الأعظم.
- جارو: الإله النُّور المُرتبط بإله القمر (سين).
- ايلابرات: رسول (نو).
- عشتار: إلهة الحُبِّ والحَرب.
- الإز: إلهة العالم الأسفل الكبرى، وهي تقابل (ارشكيجال) السومرية.
- الاولال: حامية مدينة (بادا تبيرا) بالأكَّدية (لاتراك).
- ميدانوا: (مادانا) قائدة الآلهة (الأنوناكي)[1].

هذه جولة في العقيدة الأكَّدية ونظرتها للآلهة وتعدُّد الآلهة، وبداية تأليه الإنسان، وإضفاء صفات الأُلوهية عليه، فانحرفَت إلى عبادات الملوك أو إضفاء بعض الصفات الإلهية على الملك، وكلُّ هذا كان بعيدًا عن التفكير الفطري، وجَرْيًا وراء السلطنة والسيطرة على الناس ومقدراتهم.

ثالثًا: الديانة الهندوسية

1 - الهندوسية ومعتقداتها الدِّينية في الآلهة

ومع مواصلة السَّير التاريخيِّ في الديانات الوضعية، وتأليه الإنسان، ننتقل إلى ديانة أخرى اتَّخذت من الإنسان إلهًا، وهي الديانة الهندوسية، يقول الكُتّاب الهندوس أن التَّديُّنَ الهندوسيَّ

1 - جفري بارندر: المعتقدات الدِّينية لدى الشعوب، ص.ص. 16 - 25.

يقوم على أساس المبادئ التالية:

- الفلسفة ويُطلَق عليها لفظُ التَّداول.
- التنفيذ وأُطلق عليه لفظُ سوسيلا.
- ليست مُنفصِلة بل يُكمل بَعضُها بَعضًا في وحده تصوُّر عند ارتباطها العملي بمفهوم التديُّن الهندوسي.

6 - نظرية الألوهية في الديانه الهندوسية[1]

هذه الفلسفة تتَّجه نحو (سان جهيانج) يَعني إلههُم (الله)، من له صفة السلطان والقدرة، وهو الخالق والمبدع والحافظ والمُنعِم، وهو الله الواحد المُتعدِّد الصِّفات، وهو (براهما – وفشنو – وسيفا)، براهما هو الذي يُطلَق عليه لفظُ (يفته) أي أنه الخالق، و(فشنو) هو الحافظ الرحيم والعطوف، و(سيفا) هو المُهلك للعالم، وهؤلاء الثلاثة يُشَكِّلون ثالوثًا بعضُه الخالق، وبعضُه الحافظ، وبعضُه المُهلك، ولكلِّ واحد منهم وظيفةٌ يُؤدِّيها بقوته، وهؤلاء الثلاثة (براهما) و(فشنو) و(سيفا) يَحكمون العالَمَ خَلْقًا وتَدبيرًا وإفناءً.

لكن كيف وُجدت هذه الآلهة الثلاثة وهي لفظة A.U.M ؟ يقولون: عندما نُطق حرف A وُجد الإله براهما، وعندما نُطق الحرف U وُجد الإله (فيشنو) الحافظ، وعندما نُطق حرف M وُجد الإله (سيفا) أو (سيفا المُهلِك)، وهذا الحروف السِّحرية (A.U.M) صارت في الفَهم الهندوسيِّ (مو) بمعنى الدلالة على وجود الثالوث الحاكم للعالم بأسره.

وهناك آلهة أخرى يبلغ عددها 10 آلهة، غير هؤلاء الثلاثة، مثل (كريشنا) و(راما) و(بوده) و(كاله كي) ... وكلُّها موجودات لها وظائف من أجل الخلق، وإحلال صفة الربانية الطاهرة في النفوس، ومحاربة الشراهة والنَّهم والنفس الخبيثة والكبرياء والتفاخُر، وذلك بواسطة تعاليمهم التي تحثُّ على السلام والأمن والمُثُل العليا والرفيعة للحياة.

- (فشنو) هو ولد الإله، جاء لِيُحطِّم الفسادَ الذي يظهر في المجتمعات، ويُحافِظَ على الخير.
- (كريشنا) جاء من أجل إحلال السلام.

1 - رؤوف شلبي: آلهة في الأسواق، ص.ص. 99 - 101.

■ (بودا) أو (بوذا) وهو آخر الآلهة، وجاء لِيُعلِّمَ النّاسَ الخيرَ والطمأنينة.

■ (كاله كى) هو الإله المُنتظَر الذي لم يَنزِلْ بَعدُ، أما الإله الخالق (براهما) فهو في أعلى المنزلة، وقد خلق الخَلقَ وتركه لولده والمساعدين من الآلهة الصغيرة.

وما زال الهندوس ينتظرون إلهًا لم ينزل بعدُ، وهو (كاله كي) ذلك الإله الذي لم تُعرَف له وظيفةٌ. وهذا هو تصوُّر الديانة الهندوسية للآلهة، وتأليه الإنسان، أو تأليه الإله بصفات بشرية.

رابعًا: الطوطمية

وتسير المسيرةُ التاريخية حتى تَرسو في بلاد مصر القديمة، وننتقل إلي ديانة أخرى من ديانات المصريين التي اتَّجهت إلى تأليه الإنسان، أو جعل المَلِك البشريِّ إلهًا، تأثُّرًا بغيرها من الديانات والمجتمعات المجاورة، وهي الطوطمية.

1 - نشأة «الطوطمية» وأصلها اللغوي

«الطوطمية» تُعد من الديانات الوضعية التي كانت على أرض مصر وما حولها من بلاد، فقد كانت «الطوطمية» من ديانات مصر القديمة المُتجذِّرة، وهي كلمة لاتينية أصلها «توتوم» نسبةً إلى هذا النظام الذي يُسمَّى «تيتو ميوزيم»، وهو نظام تديُّني يرجع إلى تقاليد بدائية اتَّخذتها الأمم الغابرة في بطون التاريخ لها نظامًا، إذ جعلت بعضًا من الحيوانات أو النباتات رمزًا لها، ثم لقبًا لجميع أفرادها، ثم قدَّسَته وعبدَته.

و«الطوطمية» سواء كانت تقديسًا أو رمزًا أو شعارًا فهي عبارة عن تصوُّر لمفهوم الألوهية في صورة مادية، سواء كان هذا التصوُّر في قالب نبات أو حيوان أو طير، وقد أراد الدكتور (محمد غلاب) أن يَنفي عن «التديُّن المصري»، قبل عصر الأُسَر الفرعونية، مفهومَ «الطوطمية» ولكنه شقَّ على نفسه كثيراً، وأطال الحديث في مناقشات ومشادّات كي يُفسِّر وجود رموز الديانات الفرعونية مثل: «عجل آبيس» و«القطّ الفرعوني" ضمن الديانات "الطوطمية" قبل الفرعونية، ولكنَّ الاكتشافات الحديثة التي قام بها العلماء وصلت إلى نتائج مغايرة بناءً على اكتشافات مثل: «مقبره السرابيوم» التي عُثر فيها على تابوت باسم الملك (نختا نيبو)، أحد ملوك الأسرة الثلاثين، وهي الأسرة الفرعونية الأخيرة، ووُجدت توابيتُ صغيرة وبها مومياء للطيور المُقدَّسة،

وعُثر داخل تلك الطيور على تمائم وعقود مصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة النادرة، ممّا كان يُقدِّمه الشعبُ قربانًا لها، وهي لا شكَّ تدلُّ على درجه تقديسٍ لهذه الطيور في نفوس المصريين القدماء.

7 - الطوطمية نمط من أنماط التديُّن المصري البشري القديم

كانت «الطوطمية» نمطًا من أنماط التديُّن المصري البشري، كما هو الشَّأن في أي بقعة من بقاع العالم القديم، وكان المصريون في عصور ما قبل التاريخ يَعبدون آلهة كثيرة، وكان كلُّ إله مختصًّا بجهة معينة، فكانت الطوطمية مظهرًا من مظاهر التديُّن المصري القديم، وخاصّةً بعد التوحيد القُطري لمصر على يد الملك (مينا) مُوحِّد القُطرين، ثم التَّوحيد العقَدي الذي دعا إليه (اخناتون) لعبادة (آمون) الإله الواحد الأحد.

والاكتشافات الحديثة تُؤكِّد علميًّا أن «الطوطمية» كانت مظهرًا من مظاهر «التعبُّد الصناعي» الذي يكون شأن أيِّ إنسان حُرِم من «الوحي المعصوم»، فينقاد تدريجيًّا إلى مرحلة من مراحل تأليه الإنسان، مثل قصة (ايزيس) و(اوزوريس)، هذه القصة التي يُمكِن أن نُطلِق عليها إرهاصات «التثليث المصري القديم»[1].

8 - عناصر الديانة «الطوطمية»

تعتقد «الطوطمية» بتعدُّد الأطياف في ثلاثة، لكل واحد منهم وظيفة، وهي:

- (أوزوريس) وكانت وظيفته الإنبات والخصب فهو إله النيل.
- (إيزيس) وظيفتها الحكمة والتشريع والسِّحر والوفاء والإخلاص.
- (توت) وظيفته العلم والتدبير.

9 - الصراع بين الآلهة في «الطوطمية»

لم تشأ الأسطورةُ أن تترك هذا المُثلَّثَ أن يعيش، بل أوجدت له أخًا لـ(أزوريس) وهو (ست)، ولكنه كان يَكرهه، لأنه إله القَحط والجدب والشرِّ، غير أن (ست) لم يستطع مجابهتَه وجهًا لوجه، فاحتال عليه وأدخله في تابوت ضخم، صنعَه خصيصًا لقتله، وأدخله في هذا التابوت بأسلوب

1 - طه الهاشمي: الطوطمية، ص.ص. 58 - 70.

شيطاني، ثم أقفل عليه، وقذف به في النيل، ولما طالت غيبتُه افتقدَته زوجتُه، فراحَت تبحث عنه، فلم تجدْه فصمَّمَت على أحد أمرين:

إما أن تلحقَ به، وإما أن تَجِدَه، وقطعَت (ايزيس) على نفسها عهدًا أن تُعيده إلى الحياة، وحصلت (اوزوريس) على الصندوق، لكنَّها قبل أن تفتح التابوت يَلحَق بها (ست) ويتغلَّب عليها، ويُقطِّع جسدَ أخيه إربًا بلغ عددُها 72 شلوًا، ثم ألقى بكل شلو من هذه الأشلاء في مقاطعة من مقاطعات مصر، وقامت (ايزيس) بجلب هذه الأشلاء والقطع المتناثرة، مستعينةً بإله العلم والتدبير (توت)، ثم قرأت عليه بعضَ التَّعاويذ والرُّقى، فعادت له الحياة، غير أنَّها حياةٌ لا تُشبِهُ الحياةَ الأولى، فلم يَلبث على القبر كثيرًا، ثم غادرها واستبدلها بمملكة الأموات العظيمة، وانتهزت (ايزيس) هذه الفرصة ولم تمُكِّن ابنها (هوريس) أن يَقتُلَ عمَّه (ست)، لأنَّها ترى أنَّ الشَّرَّ ضروريٌّ للخير ولازمٌ له.

10 - صور لتعدد الآلهة في الطوطمية

كانت هناك صُوَرٌ متعدِّدة في التديُّن المصري تُفيد الاثنين أو التثليث، وهي أن (رع) «إله الشمس الساطع» -حسب الأسطورة المصرية- خلقَ نفسَه، وهو زوج (آمون المقدسة) أو روح (آمون المقدسة)، وإذا وُضع تمثالُها مع الميِّت حُفظ لحمُه، وسَلِمت عِظامُه، وأُعطيَت له حقولٌ يَزرعُها في الجنة.

خاتمة

بعد هذا البيان والشرح نقف على حقيقة هامة، وهي أن البشرية كانت تتخبَّطُ في مراحل من حياتها، وتنتقل بين ديانات وضعية بعيدة عن الوحي الإلهي الذي جاء على لسان الأنبياء (عليهم السلام)، مُحمَّلين برسالات السماء من الله - تبارك وتعالى- إلى البشرية، حتى تأخذ بأيديها إلى طريق الحق والهدى والنور المبين.

وقد حاول بعض الباحثين التَّفريقَ بين العابد والمَعبود، أو بين الإله الوضعي والإله الحقيقي الخالق للكون، وهو الله - تعالى- الخالق المُبدِعُ الحكيم الخبير، ومحاولة المساواة بينهما، فأوقع البشريّةَ في الضَّلال والعمى، وأدَّى هذا التفريق إلى إفساد مفهوم الألوهية، ثم إفساد عقول الأمم

والشعوب ونفوسِهم، ولذلك، تبقى الأسطورة كما هي أسطورة، وتبقى الحقيقة حقيقة، وتبقى الفطرة في حاجة ماسّة إلى الحق المُبين والهداية إلى الصراط المستقيم، وأهم النتائج التي توصَّلَ إليها البحث:

1. أن الاعتقاد بوجود إلهٍ خالق للكون كان اتِّجاها فطريًّا عامًّا في كل الحضارات.

2. أن الانحراف العقدي نتجَ عن سيطرة بعض الطَّوائف البشرية، بمعتقداتها الفاسدة، على بعض الشعوب، وسعيها لفَرْضِ فكرِها على الشعوب المهزومة.

3. أن كلَّ الجماعات البشرية اشتركت في هذا الاتجاه الفكري والعقلي المنحرف، سواء كانت في قمه التحضُّر، أم في نهاية سُلَّم الحضارة؛ لأنها حاولت الاستنجاد بقوى خَفِيَّة من حيوانات مُفترِسة قوية أو جمادات أو أصنام وجدَت فيها ضالَّتها المنشودة في الاتجاه نحو إله حسيٍّ مَلموس.

4. أن الجماعات البشرية لم تُعارض هذا الاتجاه؛ لأنها كانت في بعض مراحل حياتها ساذجةً، يَفصلها امتدادُ الزمان عن عهد الوحي السماوي الإلهي.

5. أن اتِّباع المنهج الإلهي المُنضبط بوحي السماء هو المنهج السليم لحماية الإنسان في اعتقاداته الفكرية والفلسفية والعقدية.

6. ضرورة توسيع الأبحاث العلمية في الديانات الوضعية؛ لأن البشرية في عصرها الحالي بدأت تتراجع إلى هذه الديانات الوضعية، وانتشر الإلحاد وغير ذلك من الديانات والأفكار الوضعية القائمة على فكر بعض الأفراد والاعتقاد بهم، أو الاتجاه الجمعي للجماعة البشرية، الذي يُسمَّى بـ «العولمة».

لائحة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.

2. الإنجيل والتوراة (العهدين القديم والجديد).

3. إبراهيم، محمد إبراهيم، الأديان الوضعية في مصادرها المقدسة وموقف الإسلام منها، مطبعة الأمانة، القاهرة، 1985، ط1.

4. ابن حزم، علي بن محمد، الفِصل في المِلل والأهواء والنِّحل، تح. محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، 1996، ط2.

5. بارندر، جفري، المعتقدات الدِّينية لدى الشعوب، تر. إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1993، ط1.

6. بقه، بلخير، أثر ديانة وادي الرافدين على الحياة الفكرية في سومر وبابل (3200_ 539 ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية_ قسم التاريخ، 2009/2008م.

7. حجازي، عوض الله (مناهج جامعة المدينة العالمية)، الأديان الوضعية، جامعة المدينة العالمية، كوالا لامبور - ماليزيا، 2010، ط1.

8. دراز، محمد عبد الله، الدِّين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)، دار القلم، بيروت، د.ت، لا ط.

9. شلبي، رؤوف، آلهة في الأسواق، مكتبة الأزهر، القاهرة، 1980، لا ط.

10. عبد الحليم، نبيلة محمد، معالم العصر التاريخي في العراق القديم، دار التاريخ، الإسكندرية، 1983م، لا ط.

11. الماجدي، خزعل، الحضارات السامية المبكرة، منشورات تكوين للنشر والتوزيع، الكويت، 2019، ط1.

12. مهران، محمد بيومي، المدن الكبري في مصر والشرق الأدنى القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، لا ت، لا ط.